فلسفة النشوء الخالق

موازنة بينها وبين فلسفة النشوء التي انتهى عليها سبنسر

لحنا عياد

قال الفيلسوف الاميركي وليم جيمس ، في فلسفة برجسن ، يوم صدور كتابه « النشوء الخالق » Creative Evolution : — انّ هذه الفلسفة لأعجوبة حقيقية في تاريخ الفلسفة . وبادئها بدء عهد جديد فيه . امّا شكلها فإيقاع عذب رخيم او جدول غير جامح ، تتدفّق المياه بين ضفتيه بانتظام ، وبدون عنف .

وقال الكاتب ول دورنت الاميركي في كتابه « تاريخ الفلسفة » : — برجسن هو الفيلسوف الأوحد بفرنسا بعد ديكارت ، وفي اوربا كلها بعد كنت

فما هي تلك الفلسفة التي رفعت واضعها الى هذه المنزلة ؟ وما هي صورتها الفكرية التي يمكن تبيانها بجملة واحدة ، او ببضع جمل ؟ ذلك ما اسوق هذه المقالة لتحقيقه

واوّلاً — اسأل : ما هي القضايا التي ابتكرها برجسن ؟

١ — القضايا التي ابتكرها برجسن

ابتكر هنري برجسن أربع قضايا ، وعليها بنى فلسفته . والقضايا هي : —

الاولى : انهُ ، عدا المعرفة العلمية ، والمعرفة العقلية ، توجد معرفة فلسفية . ومعرفة متوسطة بين هذه وبين تينك المعرفتين ، وهي المعرفة البديهيّة

الثانية : يتناول العقل قسماً من اليقينية ، وتتناول البديهة قسماً آخر . فالعقل يتناول المادة والبديهة تتناول الحياة . فيلامس العقل هذا الكون من الخارج . أما البديهة فتلامس الكون من الداخل

الثالثة : ان الرأي القائل « إن اليقينية ساكنة » هو رأي زائف منبوذ فليست اليقينية ساكنة كما زعم ارسطو واضرابه . بل متحركة وبالأحرى ان اليقينية هي الحركة بالذات

الرابعة : ان الاستمرار يقارن الحرّية التي هيَ هو . وهذه الحرية شرط لا بدّ منهُ للابداع

على هذه القضايا ترتكز فلسفة النشوء الخالق

(ملخص عن الفكر)

٢ — برجسون وسبنسر

كان برجسن في أول نشأته من عشاق فلسفة سبنسر . ولكنهُ عاشق عاقل ، لا يعمى الحب عن عيوب ما يحب . فلم يفت نفسهُ الحرَّة ادراك ما في فلسفة النشوء السبنسرية من عيوب وكانت تلك العيوب تزداد ظهوراً امامهُ كلما تقدَّم . حتى تحوَّل حباً عبداً لها . وتتوزع نقاط الخلاف بينهُ وبينها في أرؤس ثلاثة . الاول : ما يختص بامر المادة والحياة . الثاني : ما يتعلق بالجسد والعقل . الثالث : ما يلاحظ الحرية والحتمية

ومعنى ذلك ان سبنسر يحسب الحياة ظاهرة مادية ، وبرجسن يرى ان الحياة أصل والمادة عرض او ظاهرة لذلك الأصل . هذه اولى نقط الخلاف بينهما

وثانياً — يرى سبنسر العقل ظاهرة بيولوجية . وبرجسن يراه والمادَّة عنصراً واحداً معكوس اتجاه الحركة كما سيأتي . وبعبارة أخرى ان سبنسر لم يأخذ على عاتقه تبيان نشوء العقل ونشوء المادة بل يأخذ وجودهما أمراً مسلماً بهِ اما برجسون فيبين نشوء العقل ونشوء المادة . وبحسب ذلك من أهم خصائص الفلسفة

ثالثاً — ان نشوء سبنسر ميكانيكي . وحوادث الكون بحسب رأيه حتمية . يطبق ذلك الحكم على العضويات كما يطبقه على غيرها . أمَّا برجسن فيرى العضويات ممتازة على الجوامد امتيازاً جوهريًّا . فأعمالها حرَّة طبيعيًّا . وهي خلق مستمر

وأرى من واجبي أن آتي اولاً على وصف فلسفة سبنسر وصفاً مختصراً . فيكون ذلك خطوة اولى في الكشف عن فلسفة برجسن . ثم أتقدَّم الى الكلام في مؤلَّفات برجسن ، والاشارة الى فحواها . ثم اذكر خلاصة مذهبه الفلسفيّ . واختم بالاشارة الى وجوه التباين بين فلسفة برجسن وبين فلسفة سبنسر التي نبذها

٣ — ممرحلة فلسفة سبنسر

قضى سبنسر ستًّا وثلاثين سنة في تأليف ما يدعوه « الفلسفة المركَّبة » . بدأ بذلك سنة ١٨٦٠ وانتهى منهُ سنة ١٨٩٦ . فأنجز تأليف احد عشر مجلداً ضخماً . وهي : مجلَّد واحد في « مبادىء الاولى » واثنان في « مبادىء علم الاحياء » . وثلاثة في « علم النفس » واثنان في « علم الاخلاق » . واثنان في « علم الاجتماع » . ومجلَّد واحد في « الديانة » . رمى سبنسر بهذه المجلَّدات الى تجلية ناموس النشوء . اعني انهُ اراد ان يوضح فعل هذا الناموس في المادَّة والحياة والعقل والاجتماع والاخلاق والديانة

وقد وضع تعريفاً لناموس النشوء ، في قولهِ إنهُ : تقدُّم من متجانس غير محدود ، ولا متطابق ، الى تباين محدود متطابق . ويتضح معنى ذلك بما اورد من الأمثلة

في عالم المادة : المتجانس غير المحدود هو الهيولى الأصلية ، قبل تشكلها ببسائط ومركبات. والبناء المحدود هو العناصر ، ومركباتها . فالعناصر هي البسائط الأصلية الثابتة ، التي يعرف منها نحو اثنين وتسعين ، أولها الايدروجين وآخرها الاورانيوم . فهذه هي بناء محدود . والهيولى قبلها تجانس غير محدود . والتقدم من ذلك الى هذه هو التشوء . كذلك ما تركب من ذلك البسائط ، هو تقدم من متجانس الى متباين الخ

هذا أول ميادين التشوء

وفي عالم النفس : التجانس غير المحدود ، ولا التطابق هو الشعور في أبسط حالاته . كشعور الطفل لدن يرى النور أول مرة . يلي ذلك مؤثرات عديدة كالاصوات والالوان والاشكال والاشخاص والحركات والحوادث . وكل ما يحتك به الطفل من المهد فصاعداً . تنشيء هذه المؤثرات في نفس الطفل ادراكاً حسياً فتصوراً فتصديقاً فاختباراً . فهذا التقدم في حال النفس من متجانس غير محدود الى متباين محدود هو التشوء

وفي علم الاجتماع : التجانس غير المحدود هو الأفراد البشريون في حال البداوة الأصلية . يوم كان الناس يعيشون في الغابات ، حفاة عراة جهلاء ، أو هم كالبهائم . هذا هو التجانس غير المحدود

بعد ذلك تدرج الأفراد في مراقي الاجتماع . فخاطوا الملابس . وشادوا المساكن . ومارسوا الزواج . وسنوا الشرائع وألفوا الحكومات . ونظموا الهيئة الاجتماعية . فهذا التقدم من حال البداوة الى حال الاجتماع هو التشوء الاجتماعي

وهكذا في علم الاخلاق ، والديانة . هذه هي صورة مصغرة لفلسفة سبنسر التي أحبها برجسن اولاً ثم عابها فهجرها . وألف فلسفة جديدة دعاها «التشوء الخالق»

٤ — التشوء الخالق

ما هو ؟ أغير ما قال سبنسر ؟ أم ماذا ؟

يقول برجسن في مقدمة كتاب التشوء الخالق ، ان التشوء البشري زائف . لأن سبنسر أطلق ذلك الناموس على العالمين العضوي وغير العضوي . وبرجسن يرى بينهما فرقاً جوهرياً . فالمادة غير العضوية متصلة . لا حون ولا طول . أما الحياة فقوة فاعلة . وفي الكائن العضوي ميل ورغبة وجهد . ولجهوده تأثير في ماجرية التشوء . فلا يجوز وضع الكائن العضوي في مصاف الجوامد ، واطلاق الناموس العامل فيها عليه . ويسند برجسن الى الجوامد صفتين تخالف فيها العضويات

الصفة الأولى للجوامد : ان الجزء منها يمثل الكل دون تمايز . فالجزء من الحديد يمثل كل

الحديد والجزء من الفحم يشبه كل الفحم . وهكذا الشبّ والملح والذهب والهواء والماء والحلازين إلخ إلخ (النشوء الخالق ص ٢٩)

الصفة الثانية للجوامد : ان الصيرورة فيها منظورة مقدماً لأنها ميكانيكية حتمية ، وما جرى منها تكرار ، يجري على وتيرة واحدة ، دون تجديد أو إضافة . فالكيميائي مثلاً يعرف ما يحصل من تركيب الأوكسجين والايدروجين في نسبة معلومة . وهو الماء . وكذلك ما يحصل من تركيب مقادير معلومة من الاوكسجين والنتروجين . وهو الهواء . وكذلك من الصوديوم والكلور وهو الملح . وعلى هذا النحو يتمشى التركيب في غير العضويات . فصورها المتولدة عن التركيب منظورة مقدماً . ولا يحدث في تكرار عملياتها ما هو جديد . ويقول برجسن ان هذه المواد هي الآن كما في دقيقة سلفت . فلا تاريخ لها . وان تغيرها انما هو عبارة عن نقل جزء منها من مكانه ثم اعادته الى مكانه . هذا هو التغير الممكن ان يحدث في غير العضويات بسيطة أو مركبة

وليس كذلك العضويات . فأولاً ان الجزء منها لا يمثل الكل . بل هنالك فروقات في التراكيب وفي الوظائف . فرأس الحروف مثلاً لا يمثل الحروف . وذراع الانسان لا تمثل الانسان كله . ففي العضويات ما ليس في المواد غير العضوية من هذا النحو . فيها مجموعات عديدة متنوعة الوظائف ، كالمجموع العظمي ، والمجموع العضلي ، والمجموع العصبي ، والمجموع الهضمي والدوراني ، والتناسلي . وهكذا . وما قيل في نشوء انواع جديدة يقال في نشوء افراد جديدة من حيث التنوع والتباين والاستمرار (ص ٣)

ثانياً : ان صيرورة العضويات لا يمكن نظرها مقدماً . لأنها ارادية حرة . فهي خلق لا تكرار او ان فيها خلقاً . انا نعرف منازل القمر فيمكننا ان نتنبأ أين يبيت كل ليلة . كذلك نعرف الابراج الاثنى عشر التي تحل فيها الشمس في مدار السنة . اما الانسان ، وقد نهض ، فمن يدري هل يذهب الى السوق او الى الكنيسة ، او الى النزهة ، او الى القهوة ؟ ومن يعلم هل يعود ومتى يعود ؟ وكيف يعود ؟ لا أحد . لأن سير الشمس والقمر ميكانيكي حتمي ، لا خلق فيه . أما سير الانسان فهو اختياري ارادي . وبلغة برجسن : الانسان خالق افعاله : أي ان أفعال الانسان حرة غير حتمية . فلا يمكن الانباء بها قبل حصولها كما يمكن ذلك في غير العضويات . ثم ان الدقيقة الحاضرة لا تدل عليها دقيقة سلفت كما في غير العضويات . لأن للعضوي تاريخاً . وفي كل لحظة هنالك شيء جديد . (راجع كتاب النشوء الخالق صفحة ٨—١٦) وفي الوسع ايراد أمثلة لا تحصى على ما تقدم . مثلاً : كرة الثلج تتدحرج من ذروة الجبل الى أسفله وأغصان الأشجار تحركها الريح . وكرات البلياردو تندفع بتأثير المضرب فيها . فهذه حركات ميكانيكية حتمية . أما اتجاه الرضيع نحو الثدي فهو فعل حيوي . وكذا ذهابه الى المدرسة ، أو الى النزهة ، او الى

غير ما ذكر. وكذلك حب فيلسوف ما، وهوى جميل بينه وبين نفسه. وما شاكل ذلك من الافعال والحركات هو خلق لا تكرار. فلا يمكن أن يتغير معه شيء ولا يجري على نمط واحد.

٥ — مؤلفات برجسن

لبرجسن اربعة مؤلفات كبيرة، عدا ما ألقى من محاضرات، ونشر من مقالات. وألقى من دروس في خلال ستين عاماً. واول مؤلفاته «الزمان وحرية الارادة». والثاني «المادة والذاكرة». والثالث «التطور الخالق». والرابع «صل الاخلاق والديانة».

كتاب «الزمان وحرية الارادة»:

هو باكورة مؤلفات برجسن. اتمّ تأليفه سنة ١٨٨٩. ومما جاء فيه: — ليست النفس كالمادة ذات ابعاد. ولا هي خاضعة للنظام الهندسي. ولكن لغاتنا البشرية، ومصطلحاتنا العلمية، تسوقنا عن غير قصد، الى وصف النفس بأوصاف المادة. فنجسّمها. وليست جسماً فينتج عن ذلك تطرّق الحتمية الى الافعال البشرية. وتحكّم الميكانيكا والرياضيات فيها. وهو خطأ قادنا اليه وضعنا الكمّ موضع الكيف، والميكانيكا موضع الارادة. فانّ المادة لا يمكن ادراكها الاّ بقيود فضائية (من حيّز ذي طول وعرض وعمق) فلا نتصوّرها الاّ ذات أبعاد. وليست النفس وأفعالها كذلك. فعاطفة الحب غير فضائية. أي انها لا تشغل حيزاً. وكذلك الفكر والارادة والاستدلال، هي أفعال نفسية حرة من قيود الميكانيكا الهندسية.

هنا يبحث برجسن في الزمان والمكان، وينتقد سبنوزا وبينتر وكنْت، لأنهم خلطوا بين الزمان المجرد وبين الزمان الاضافي بداعي اشتراك اللفظ. ففادهم ذلك الى القول بالحتمية. فالكلمة زمان عنده مدلولان. الأول الزمان المجرد، مقياس الحركة، والثاني الزمان الاضافي فالأول تمكن قسمته الى أجزاء كالسنين والأيام والساعات مثلاً. فهو خاضع لناموس القضاء. والحوادث منتشرة فيه انتشار الأشياء في الفضاء. ووحداته متتالية كقرعات القطار. تأتي الواحدة بعد سابقتها. فلا تبدأ سنة ما لم تمرّ اختها. ولا تبدأ ساعة أو دقيقة حتى تنتهي ما قبلها فالزمان المجرد هذا هو ظرف

أما الزمان الاضافي فهو الاستمرار، هو ما تجاه. هو اتصال لا يقبل الانقسام. وحوادثه متداخلة لا متجاورة. فيندمج فيه الماضي في الحاضر. فحياة النفس لا زمانية بمعنى الزمان المجرد. ولكنها زمانية بمعنى الزمان الاضافي. ولها وحدة كالحركة لا تقبل الانقسام. فان الحركة لا تنقسم بصرف النظر عن الخط، او الميدان الذي تحدث الحركة فيه فانه منقسم. فالعلم يتناول ميدان الحركة لا الحركة ذاتها. وهو عبارة عن التكرار في زمان وفي مكان. لذلك يمكن نظر صيرورته مقدماً. فتبين الخسوف والكسوف قبل حدوثهما. وذلك فعل منطقي أيه يتبين اللاحق

بتعيين السابق فالرياضي يستنتج المثلث من اصلاعه وزواياه والحاسب يستخرج المجهول بواسطة المعلوم والمنطقي يرى النتائج بالمقدمات

والاستمرار فعل بسيط (غير مركب) لا اجزاء له ، ولا وحدات فيه . فهو كيف لا كم . اتاني لا تجزيدي . والنتيجة اننا لا نقدر ان نخبر بصيرورته مقدماً . إذ لا علم ما سيكون من امر الفعل . لان هنالك احتمالات شتى . ومتى وجد الاحتمال بطل الاستدلال . فالارادة الانسانية خالقة افعالها . ومع أن افعال الانسان مطيعة على نواميس الميكانيكا والمنطق فهي حرة لا تسيرها الميكانيكا والمنطق . هذا بعض ما في الكتاب الاول

كتاب المادة والذاكرة :

صدر بحسن هذا الكتاب سنة ١٨٩٦ . وهو أعقد مؤلفاته ، يفيض فيه في الكلام في الدماغ والادراك الحسي والذاكرة والعقل والاسقطان والزمان والمكان والمادة . وجاء في ختامه :

١ً : كل حركة بين سكونين هي غير قابلة الانقسام

٢ً : توجد حركات نسبية رياضيًّا وبقيت طبيعيًّا (كحركة الفكر ؟)

٣ً تقسيم المادة اجزاء منفصلة بعضها عن بعض ، هو تقسيم رياضي

٤ً الحركة عبارة عن تغير الحال لا تغير الشيء

لنا عالمان ضدان ، لا يأتلفان بغير معجزة ، هما الحركة في الفضاء ، والادراك الحسي . هذا الشعور غير الزمان المجرد بقياس الحركة . وتوجد ثغر بين الموضوعات المادية ، قد تضيق حتى لايكاد يشعر بها . بقياس نمو ادراكنا ينفصل عملنا عن المستقبل . فقانون المادة الفناء في الحاضر الذي ليس لها ماض ولا مستقبل

يفصل مذهب المثنوي العقل عن المادة (هو مذهب ديكارت القائل ان في العالم جوهرين غير الله ، هما المادة والعقل) فيجب الجمع بينهما زمانيًّا لا مكانيًّا . وفي قرن الذاكرة بالعقل تضييق الثغرة الكائنة بين العقل والجسد : ينتج مما تقدم

١ً : ان جسدنا آلة الفعل لا غير

٢ً : ليس الادراك الحسي والذاكرة شيئاً واحداً

٣ً : يعطينا الادراك الحسي الأشياء في ذاتها

٤ً : الفعلان الحقيقي والجوهري هما نمو الشعور والذاكرة

٥ً : الذاكرة روحية ، أو روح . وليست اعلان مادة

٦ً : ليست الذاكرة من وظائف الدماغ

٧ً : التقريب بينها وبين الادراك هو تقريب العقل من الجسد [تتمة البحث في الجزء الثاني]